زينوبيا

للأستاذ محمد محمد مصطفى

[لا تزال أطلال مدينة « تدمر » قائمة بالقرب من دمشق ينقب فيها العلماء عن الآثار ، وقد حكمت هذه المدينة من سنة ٢٦٧ إلى ٢٧٢ بعد الميلاد فتاة تدعى « زينوبيا » فاتنة عبقة شديدة المراس لاقى منها الرومانيون الأهوال ، وقصتها ممتعة شائقة]

— مولاتى ... مولاتى ... أين مولاتى ؟

— ما وراءك يا مرندا (١)

— إنه بيلنوس يا مولاتى ... تالله لقد رأيته بعينى هاتين . أنصتوا ... ألا تسمعون قرع الطبول ؟ ... لقد عاد بيلنوس من مصر على رأس جيشه الظافر

— لئن كان ذلك حقاً فلن يضع أحد سواك على رأسه النار

* * *

ودنت كتائب الجيش من المدينة فقامت « تدمر » بأسرها تحيى الظافرين ، وغص قصر الملكة بزرافات الشعب ترقب عود الفاتحين ...

وتحدج الملكة بنظرها قائدها بيلنوس وقد نال منه الوني ، وبدا عليه الوهن لفرط ما بذل فى دحر الرومان ، فتهتف : يا ابنة ناديوس ضعى على رأسه النار

ويفتر ثغر مرندا لهذا الشرف ويهتز له قلبها وتطوق رأسه بالغار ، وتسأله فى خفر : كيف وجدت مصر ؟

— لقد عاث فيها الرومان الطغاة وأنزلوا بها الهوان ، فانقضت جيوشى عليهم فروعتهم وملأتهم رعباً وتساقط جنودهم تحت أقدام فرساننا كالذباب واندفعت وراء فلولهم حتى انجلى آخر رومانى عن أرض وادى النيل

وتبسم الملكة فيميد لابتسامتها قلبه ، وتقول له : لقد أعجبت بما جندات من جنود المدو مشاة وفرساناً ، وقد وليتك أرض مصر فكن بأهلها رحيما ، واعلم أن بها أناساً يكنزون المال وآخرين لا يجدون إلى القوت سبيلاً ، فخذ من غنيهم وأعط فقيرهم ، فإن أبوا فخذ رقابهم من أموالهم بديلاً ، فإن جئتك زائرة لا أجد فيها معوزاً ولا ذليلاً

واهتز جسم القائد وشحب لونه شحوباً عظيما وتمتم فى صوت خافت :

— أفيكون جزاء بلائى وما أكنه لك من بالغ الوجد إقصائى ؟ فتدركه مرماه وتهمس له مؤنبة :

— ما رأيت أشد منك هولاً فى الحرب وأوهى جلداً أمام النساء

فتقصد جبينه عرقاً ولوى عنانه وانسل بين جموع الجنود

* * *

أخذ الكرى بأجفان الجنود إلا بيلنوس ، فقد أمضه السهد ، ورانت على نفسه الأحزان ، فانطرح على الرمال يؤرقه الشوق إلى وجه مليكته التى أرسلته إلى مصر وهو الذى كان يستمد السعادة من النظر إلى عينيها

وفى ذات ليلة هاجه إليها الوجد ، فجلس يقلب فى السماء عينيه الساهرتين ، وذكر أنها تنيم الآن بالحياة ، لا يخطر اسمه على بالها ولا تفكر إلا فى شئن الغارات على ممتلكات الرومان ، أما قلبها فلن تهبه له ولا لسواه ، لأنها تهيمن عليه وتخضعه لإرادة من فولاذ

وأحاط به اليأس ، فقام يمشي كسير النفس جريح القلب ، ذاهلاً ، لا يشعر إلا بألمه . وفى منعطف الطريق رأى سائلاً ، فتحسس جيوبه ليعطيه شيئاً فلم يجد ، وأراد قتل الوقت فسأل السائل عمن يكون ، فتكلم السائل أو تحدثت الفتاة التى تمد يدها فى الطريق ، فكأنما كانت تسكب فى روحه نغما موسيقياً يسحره ويسلبه . وقالت : إنها رومانية فقدت ذويها فى الحرب ، فلبست مسوح الرهبان ، ووقفت تستندى الأكف لتطعم أبناء جلدتها الجائعين

ويشفق بيلنوس لهذا الجمال يهصره برد الليل ويقبره الدير ، ويأسى لهذه الفتنة يدب فيها الذبول ، وهذه العيون ينطفىء فيها البريق ، وتراه « دورا » مقبلاً عليها بنفسه وبقلبه ، فتسكن إلى حديثه ، وتنصت له بسمعها وقلبها ، حتى إذا ما كشف عن نفسه

(١) ابنة ناديوس كبير الكهنة

وعلت فيه المبدد لجيوش وطنها القاتل لذويها ثارت نفسها سخطاً عليه

***

نحن فى القصر الامبراطورى بروما وقد جلس الامبراطور أورليان على عرشه يحف به الجلال، وتراه يستبطئ قدوم شخص دعاه فيزلزل البهو بصوته الجهورى :

— أين مارسيوس ؟

— هوذا أنا يا مولاى

ونرى فتى مديد القامة يهش الامبراطور لقدومه ويبش ويسأله عما إذا كانت السفن قد أعدت للرحيل، فيجيب: نعم، فيقول: ألم يصل بعد أوكتاف، فينبئه أنه وصل الآن وأن الراهبة ستعمل بمشيئة الامبراطور

— حسن . ستكون أنت إذاً يا مارسيوس على رأس الجيش المغير على أرض تدمر، وعليك أعتمد فى محو هذه الملكة، وعليك أن تولى وجهك إذا ما حالفك النصر شطر مصر ، ولدى دورا أوامرى المشددة بإقصاء القائد بيلنوس عن مركز رياسة جيشه

***

— مالى أرى وجه الحبيبة كالحاً كالظلام ؟

— قد تركنى حبك يا بيلنوس نهباً بين نداء القلب ونداء الدم، ولى الآن شهور انقطعت فيها عن جو الإحسان لأنعم بقربك وترانى أذوب كمداً كلما ذكرت أهلى الذين جندلوا فى الحرب ، ولم يبق منهم غير شقيقى الذى لاذ ببطن الصحراء وركب النيل إلى بلاد النوبة

— جعلت فداك ، فما تشائين ؟

— أريد اللحاق به فما يهنأ لى عيش بدونه

— وأنا يا دورا ... أفتتركين هذا الحب يعبث بقلبى لا ينفعنى طب ولا رق ؟

— فلم لا ترافقنى فى رحلتى نبحث عنه ونعود به فأعيش بينكما ؟

— ومصر يا دورا ؟

— ليقم عليها لبيد بن عبد الله حتى تعود

ونجحت دورا فى إقصاء القائد عن جيشه ، وتوغلت به فى ذرا الهضاب وبين النجود والوهود تسأل النادين والرائحين عن شقيقها المزعوم ، وشغله هواها عن مليكته وجيشها الذى ائتمنته عليه .

***

أبحر مارسيوس وألقت سفنه مراسيها ، ووثب جنوده إلى شاطئ «تدمر» كأنهم موج يتلوه موج ، وساح جيشه فى أرض تدمر كأنه الطوفان ، وأفل نجم زينوبيا فلم تصمد لهجومهم المنيف

وصعدت الملكة إلى مخدعها حيث كانت خادمتها تمسح عن سيفها ودرعها دماء الأعداء

وتهالكت على مقعد وقد بدا على وجهها الجميل الغضب فزادها جمالاً وتمتمت : كيف يكون هذا يا رب ؟

أين أنت يا بيلنوس ... يا خائن ؟

تالله لو رأيته لأجعلن جسده طعاماً للنسور

واقترب مارسيوس من القصر الملكى وملكه العجب لهذا الفردوس وهذا الدوح المحيط بقصرها المرد المنيف . وما كاد يطأ وصيد البهو حتى رأى زينوبيا جالسة على عرشها وقوراً

وسمرت قدماه وقد شدهته هذه الفتنة ، وسبته عيناها الفيروزيتان ، وراعه جمالها فزلزل كيانه وانعقد لسانه فما كاد يبين

ووقر فى قلبه أن هذا الجسد الفتان سيكون هدفاً للسهام إن أرسلها أسيرة حرب إلى روما

وهتفت نفسه: ماذا أفيد من دك هذا العرش وموت هذه الفتاة؟

ودنا منها متوسلاً إليها أن تفر من وجهه إلى حيث يحلو لها المقام

واستضحكت زينوبيا وقالت :

— أما وقد ثل عرشى واجتاحت جيوش الرومان بلادى فليس لى رغبة فى الحياة

وحلق فيها مارسيوس وأخذ يعبث بيده فى قوسه وسهامه ورأسه يفور كبركان أوشك أن ينفجر

قال وهو يرسف فى إسار سحرها :

— لا شك أننى أخطأت بلقائك يا زينوبيا بعد ما انتهى إلىّ من فعل سحرك بمن يراك ، ولقد غلبنى هواك فما أستطيع إرسالك إلى روما ليعجل الامبراطور أورليان بك إلى الموت

— أتخاف الموت أيها الشاب ؟

— كنت لا أخافه قبل أن أراك ، أما الآن فقد تبدل الحال وأحببت الحياة لأنك معنى كبير من معانيها

— إنك تجيد الغزل إلى حد ما ... ولكن قلبى منيع لم يتطرق إليه يوماً عبث الحب وسفاسف العشق التى أودت بقائدى الخائن بيلنوس الذى شغفته الرومانية حباً ، وتوغلت به

فى الجبال ، فلم يعثر عليه رسولى ولا سمع استغاثتى

إفعل ما توحى به إليك وطنيتك وما أمرك به امبراطورك أيها الشاب فتكسب احترامى وتقدير مواطنيك

فما سمع منها ذلك حتى ذهب لونه وتفصد جبينه عرقاً ، حتى لقد ظنت الملكة أن فالجاً قد عاجله ، واقتلع قدميه اقتلاعاً حتى دنا منها وسلك يديها البضتين فى سلسلة من ذهب

وحالف النصر مارسيوس فاجتاح مصر وثأر لمواطنيه، وغدرت « دورا » بيلنوس فأسلمته إلى مارسيوس

***

وهبت روما تستقبل من عجلت بفناء فلذات أكبادها أعواماً تلى أعواماً ، وكان الناس يؤذونها بما يرمونها به من فاحش القول وبذىء الفعال ؛ على أنها كانت وسط هذا الضجيج رافعة الرأس هادئة البال ، فكانت فى عجفها ملكة لم يغير من أبهتها ما لاقته من هوان ، فإذا ما بلغوا بها السجن ألقوها فى قبو منه يعاف النوم فيه الكلاب ...

***

قال الامبراطور فى مجلس الأعيان :

— سأرمى بها للأسود فى ملعب الأولمبياد لتخفف لوعة المحزون على ولده من شعبى

فضج المجلس بالاستحسان ، واسترسل الامبراطور :

— وسيكون يوم موتها عيداً تقام فيه الصلوات للآلهة شكراً ، وسأضع بيدى هاتين التاج على رأس مارسيوس المظفر !

وعجل مارسيوس العودة إلى روما إذ دعاه امبراطوره . ولما علم بالعزم على طرح زينوبيا فريسة للأسود اشتد وجيب قلبه ، حتى خيل إليه أن صوت هذا الوجيب قد طغى على أصوات الجماهير التى تزخر بها جوانب الطرق . وكان يبسم للشعب وقلبه يقطر كمداً . وقبله الامبراطور فأحس كأن عقرباً قد لدغته ، ووضع على رأسه التاج فشعر كأن ناراً توضع على جبينه ...

وأحنى مارسيوس هامته حتى كادت تلامس الأرض ، وطلب إذن الامبراطور له بالكلام فأذن :

— خدمت مولاى ثلاثين عاماً أو تزيد لم ألتمس فيها شيئاً ولى الآن حاجة ...

فقاطعه الامبراطور :

— كل خزائن الدولة رهن رغبتك

— ليس لى بها حاجة

— فما حاجتك ؟

— حياة زينوبيا

فتجهم وجه الامبراطور وتمتم :

— هى ملك الشعب وقد خرجت من يدى

ووقعت الكلمات على قلب مارسيوس فدكته بين ضلوعه ، ومشى مستأنيا والناس من ورائه ذاهلون، وسقط فى فراشه يقبض بأصابعه على بطنه فيكاد يفريها، ويشد شعره فيكاد يقتلعه ، وينتابه اليأس فيوحى إلى بعض أنصاره لإنقاذها فيصرع حرس السجن منهم كثيراً ومن يبق يبتلعه السجن

***

وجلس الأمبراطور فى الحفل الهائل يضحك حيناً ويشير حيناً إلى الأسود التى تزأر فى ساحة الملعب ، فيتردد صدى أصواتها فى جنبات القصور ، وغص الأولمبياد بمن جاء من القرى والحضر ليرى المشهد المروع

ويؤتى بالملكة إلى ساحة الموت فتقترب منها الأسود فى بطء كأنها ترهب هذا الجمال وتدوى أصواتها كالرعد فيغشى على النساء ويخفى بعضهن عيونهن بأيديهن ، وكلما ضاقت المسافة جفت الحلوق وذهبت الألوان حتى الامبراطور لم يملك نفسه فهتف : « يا لهذا الجمال ! »

ووقفت الملكة يتدلى شعرها الأسود اللامع على كتفيها العاجيتين تنظر إلى الأسود لا تجفل ولا تفزع كأنها مقبلة منها على صديق ، فإذا لم يبق بينها وبين أول أسد إلا عشرون متراً رأته يقفز وبين عينيه سهم رائش نفذ فى رأسه وراح يتخبط فى الأرض ، وذعر الأسود فتفرقوا شذراً . وبسرعة خاطفة سقط مارسيوس إلى جانب الملكة ، وأخذ يذود عنها الأسود بالسيف ، ويدفع زينوبيا إلى الوراء حتى إذا اقتربت من الحاجز رفعها أنصاره ... وتراجع المنقذ ليلحق بها فأنشب فيه أسد جريح أظفاره وراح يعمل فيه

صرخ الإمبراطور : أليس لك رغبة ننفذها يا مارسيوس ؟

فهتف بما وسعته قوته : زينوبيا

محمد محمد مصطفى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين)